ابحاث جديدة حول العمارة الجنائزية الرومانية بالجزائر في الفترة الرومانية

د. فريدة عمروس•

ـ ملخص البحث :

تعتبر الشواهد الجنائزية من أهم الوثائق الأثرية، نظرا لتنوعها وتواجدها الكبير عبر كل المقاطعات الإفريقية الرومانية يتمحور موضوع المداخلة حول المعالم الجنائزية التي تعود للفترة الرومانية والمتواجدة بالجزائر. وترفق هده المعالم برسومات توضيحية للتعرف غن هيكلها الداخلي .

كما قمنا بوضع تصميمات جديدة تتماشى وفق معطيات أثرية المذكورة من قبل، أو التي اكتشفناها في الميدان

أولى الرومان أهمية كبيرة لبناء المعالم الجنائزية التي كانت أغلبها تتواجد خارج المدن وتتوزع على مختلف المناطق الريفية او تتوسط مساحات جنائزية، أو على حواف الطرقات.

وشيد عدد كبير منها من طرف أثرياء محليين داخل ممتلكتاهم وبعض الأمراء الأمازيغ الذين تعرفنا عليهم من خلال النقائش المخلدة لذكراهم.

انتشرت المعالم الجنائزية على نطاق واسع شمل كل المقاطعات الإفريقية ويعتبر موقع مدينة تبسة Theveste التي تقع شرق الجزائر من أغنى المواقع الاثرية، ويمكن إرجاع ذلك إلى ثراء مقاطعة إفريقيا البروفنصلية التي تنتمي اليها المدينة بالآثار الرومانية مقارنة بالمناطق الاخرى وتتميز معظم هذه المعالم بمخطط مربع أو مستطيل الشكل كما تتميز بتنوع اشكالها وأصنافها :

فمنها البسيطة ومنها ذات طابق علوي.

•معهد الأثار جامعة الجزائر -٢-

المعالم البسيطة :

الصورة ٠١: الشكل العام لضريح أقبو.

تتميز الأضرحة البسيطة باحتوائها على غرف جنائزية سردابية، و تخص هذه الميزة مجموعة المعالم المتوجة بسقف على شكل هرم نذكر منها على سبيل المثال ضريح أقبو (صورة رقم ٠١) الذي يقع بمدينة بجاية التي تقع شرق الجزائر والأضرحة التي تتواجد غرب مدينة شرشال وسط الجزائر حيث نجد السقف مبني بالرضم أو بالحجارة ألمنحوتة وتشبه هذه المعالم معالم أمريت المشهورة بفينيقيا التي تعود الى القرن الرابع قبل الميلاد.

وكانت تمثل النمط الاكثر انتشارا في تونس وليبيا، ولم يبق منها في الجزائر إلا آثار قليلة، وفي هذا الصدد يقول الباحث قزال: " نلاحظ على جدرانها الخارجية انحناءات منتظمة تجعلنا نفكر انها كانت تحمل جزءا علويا على شكل هرم"[1].

أما المعالم التي تتوج بسقف على شكل سنم، يكون القبر فيها داخل غرفة جنائزية تكون على مستوى ألأرض وتتميز هذه المعالم بجبهات ثلاثية تشبه المعابد الكلاسيكية، ونجد هذا النوع من السقف بضريح مدينة مادور (صورة رقم ٠٢)

الصورة ٠٢: ضريح مداوروش.

[1] Gsell (St), les monuments antiques de l'Algérie. T II, Paris 1909, P : 45.

بولاية سوق أهراس وضريح مورسط وضريح هنشير زهرة بولاية تبسسة...، وفي هذا الأخير يتكون السقف من بلاطات حجرية، ويعتقد الباحث قزال Gsell٢ أن بعض سقوف هذه المعالم كانت مبنية بالأجر المبلط والقرميد لكننا لم نعثر على أية حالة مؤكدة في الجزائر ويكون الاحتمال قائما اذا كانت المقاسات معتبرة.

وهناك مجموعة أخرى من المعالم تحمل في علوها شكل حنية او قبة نصف دائرية تمثل ألسقف مثل ما لاحظناه بضريح قصر الأحمر (صورة رقم ٠٣)

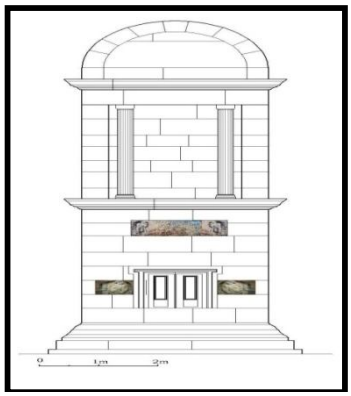

الصورة ٠٣: ضريح قصر الاحمر.

بمادور وقصر تنفست بمدينة تيمقاد. وتنتمي إلى هذه المجموعة مدافن بسيطة يمارس فيها طقوس الحرق مثل مقابر مونس بولاية سطيف شرق الجزائر والتي تظهر على شكل علبة حجرية ذات غطاء مقبب وتحتوي على عدة كوات خاصة بالرماد.

الطابق العلوي:

وكان الطابق العلوي لبعض الاضرحة بمثابة معبد صغير تقام فيه بعض الممارسات العقائدية .

[2] Op-cit, P : 51.

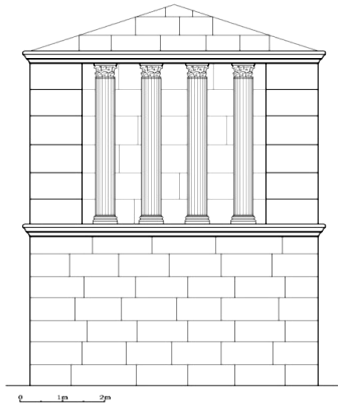

ضريح فيجت القروزة

..الصورة ٠٤: الواجهة الأمامية لضريح مورسط

ويميز بأشكال متنوعة منها شكل غرفة مغلقة تماما أو ذات فتحة واسعة على الواجهة ألأمامية أو معمدة (صورة رقم ٠٤). ونادرا ما نجد أثار سلم يؤدي إلى الطابق العلوي، لكن الباحث لفو'(PhLeveau)أكد وجوده في أحد معالم شرشال[٣]. واحتوت بعض هذه الأضرحة على غرفتين، وجدت مهيئة على مستوى سطح الارض أو على مستوى درجات القاعدة.

وغالبا ما يكون مدخل الغرفة الجنائزية على الواجهة الامامية ضيقا وموجها شرقا وعادة ما يضم هذا الفضاء الداخلي توابيت مخصصة للدفن العادي، أو على جرار فخارية يجمع فيها رماد الميت الناتج عن عملية الحرق الكلي للجثة.

الأضرحة التي لا يمكن تصنيفها:

ومن بين الأضرحة التي لا يمكن تصنيفها نذكر على سبيل المثال معلم فيجت القروزة (صورة رقم ٠٥)، المتواجد على بعد ٥٠ كلم جنوب مدينة تبسة، يتربع على كتلة من الحجارة المنحوتة يصل علوها إلى ٢.١٠م وعرضها ١م، يعلوها شاهدان متشابهان تماما وعليهما نقيشتان جنائزيتان، أما الغرفة الجنائزية فتتواجد تحت مستوى القاعدة .

ومعلم الثاني يتواجد على هضبة أولاد ألعرب جنوب غرب مدينة خنشلة شرق الجزائر حيث يصفه الباحث ماسكري-Masqueray [٤] بمثابة طاولة مستطيلة الشكل ذات طول يصل إلى ٦م وعرض ٣م .

[3] - leveau (PH), Caesarea de Maurétanie, Une ville romaine et ses campagnes, Coll. EFR.70. 1984, P : 104.

[4] - Masqueray, « Monuments de Tebessa » dans revue Africaine. XXII, 1878, P :39-40

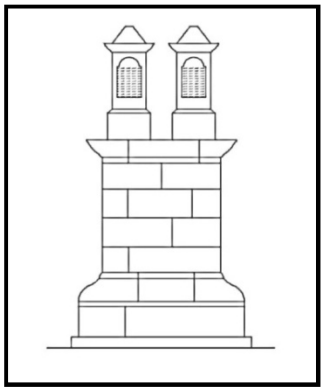

الصورة رقم ٠٥: الواجهة الامامية للضريح

وزينت معظم هذه المعالم الجنائزية بزخارف معمارية تمثلت في أعمدة نجدها في الزوايا الأربعة للمعلم، وفي بعض الحالات تظهر وسط الواجهات وتكون بارزة او تتقدم المقصورة مكونة معبدا صغيرا، أما التيجان فكان طرازها كورنثي، وكان هذا الطراز واسع الإنتشار نظرا لتطابق تاريخ هذه الاضرحة مع العصر الذهبي للطراز الكورنثي عند الرومان وهذا لا ينفي وجود التاج الأيوني في بعض ألمعالم كما زينت حجارة القاعدة والكرانيش بنتوءات.

الزخرفة المنحوتة:

وجدت على بعض المعالم، وتمثلت في زخارف نباتية (صورة ٠٦ معلم لمباز)، وصورة ترمز للموت (صورة ٠٧ معلم قصر الاحمر).

كان إنتشار هذه المعالم الجنائزية واسعا وعم كل مقاطعات إفريقيا، من الشمال إلى الجنوب ومن الشرق إلى الغرب، وما لاحظناه هو تمركز هذه المعالم في منطقة معينة أي الجنوب الشرقي للجزائر أي مقاطعة إفريقية البروقنصلية.

الصورة رقم ٠٦: ضريح لمبيز

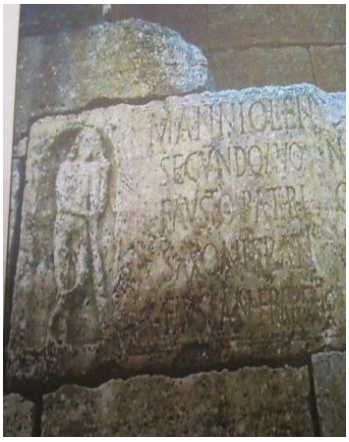

صورة رقم ٠٧ معلم قصر الأحمر

مواد وتقنيات بناء هذه المعالم:

استعملت الحجارة بمختلف أنواعها كمادة أساسية في بناء المعالم الجنائزية:

١. حجارة الكلس
٢. حجارة الفليس (Tuf).
٣. الرخام (الذي استعمل في تلبيس بعض الأضرحة مثل ضريح إكوزيوم (الجزائر العاصمة) الذي بني بالرضم وزينت واجهته الخارجية بلوحات من الرخام . (صورة رقم ٠٨).

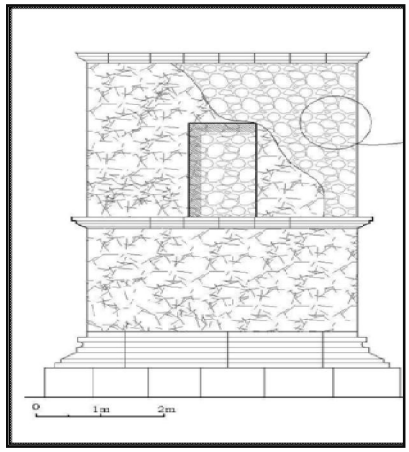

الصورة رقم ٠٨ واجهة لضريح إكوزيوم

٤. الطين التي استعملت في صناعة مختلف الأجر (الأجر المجفف، والأجر المشوي والقرميد) الذي بنيت به أضرحة روزيكاد (سكيكدة) والقيصرية (شرشال).

عملية تثبيت وتنضيد الحجارة:

أ. التثبيت:

تقوم عملية التثبيت على ربط حجرتين بواسطة مماسك من الرصاص أو الحديد لضمان تشابكها أفقيا وعموديا وتستعمل هذه الطريقة للربط بين الحجارة الكبيرة المنحوتة وكذلك للتثبيت جذع العمود مع تاجه وقاعدته، ويعود أصل هذه الطريقة للحضارة ألإغريقية إستعملت هذه الطريقة في بناء عدة معالم جنائزية التي تعود للفترتين الليبية البونية والرومانية.

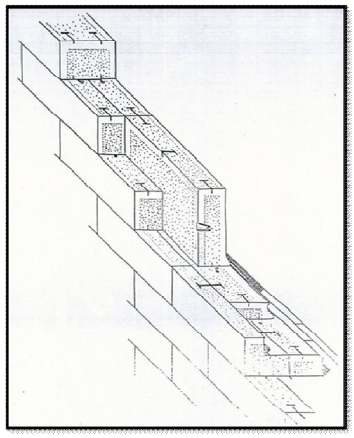

الصورة رقم ٠٩: طريقة التثبيت

Adam (JP), la construction romaine, matériaux et techniques. Paris 1989, P186

ب. التنضيذ:

عملية التنضيد هي ملئ الفراغات الموجودة بين أحجار الرضم او الحجارة شبه منحوتة بشضايا أو حجارة صغيرة لدعم الجدار وضمان ثباته، إستعملت هذه الطريقة في معالم مبنية بالدبش أو الرضم، كما إستعملت في المعالم المبنية بالحجارة الشبه منحوتة.

ويمكننا تسجيل نوعين من التضنيذ، بدون ملاط، او بالملاط الجيري.

الجير:

بالإضافة إلى مادة التربة والحجارة اللتان تعتبران مادتين أساسيتين في البناء تستعمل مواد أخرى مكملة تساهم في دعم وتقوية المبنى مثل الجير.

أ. الملاط الجيري:

الملاط الجيري يستغل في ربط الأجر المشوي والمجفف ونادرا ما يستخدم للربط بين الحجارة المنحوتة. إستعملت هذه الطريقة في بناء الجدران الداخلية للغرفة الجنائزية لضريح أزقة أرومي بشرشال. (صورة رقم ١٠).

الصورة رقم ١٠ : ضريح أزقة أرومي

ب. الملاط القرميدي

يتكون هذا الملاط من مزج مقدار من الجير مع مقدارين من كسر القرميد ويضاف إلى هذا الخليط القليل من الطين أو الرمل. ويتميز بمقاومته للرطوبة واستعملت هذه المادة في بناء معالم شرشال،(صورة رقم ١١).

الصورة رقم ١١ : ضريح شرشال -٢-

تقنيات البناء:

تعددت تقنيات البناء في العمارة الرومانية وفي مختلف مقاطعتاها فلاحظنا من خلال دراستنا للمعالم الجنائزية إستعمال مختلف التقنيات منها:

١. Opus Quadratum :

تتمثل في تركيب حجارة منحوتة على شكل صفوف أفقية، وتعتبر هذه التقنية من أهم التقنيات التي تظهر جمال بناية ما أي الشكل وحده يسمح بالإقتناع أن المبنى قانوني او خاضع لكل المقاسات ألمعمارية ومشكلا توازنا في البناية، وإستعملت هذه التقنية في العديد من المعالم.

٢. Opus Reticulatum :

تقنية بناء على شكل شباك، إستعملت هذه التقنية في بناء أحد معالم شرشال. (صورة رقم١١).

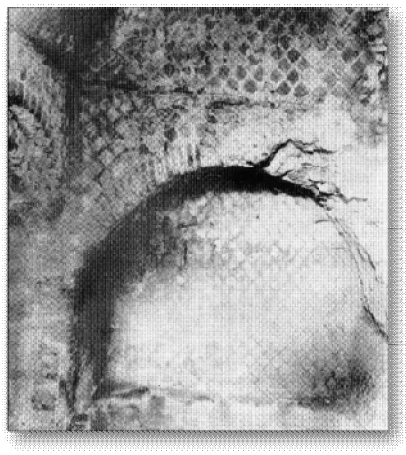

الصورة رقم ١٢: تقنية Opus Reticulatum

leveau (PH), Op-cit,

٣. Opus Pseudo Isodome :

وتسمى أيضاSaxa Quadratum، تستعمل فيه حجارة كبيرة ومتوازنة السطوح، موضوعة بشكل شبه منتظم، ويتم الربط بين الحجارة بطريقة التثبيت بمماسك من الرصاص او الحديد. أو بالتنضيد، أي تكمله الفراغات الموجودة بين الحجارة الشبه منحوتة بشظايا الحجارة ألصغيرة استعملت هذه التقنية بضريح عائلة الفلافبيين (Flavii) بمدينة قالمة. (صورة رقم ١٢).

الصورة رقم ١٣ : تقنية Opus Pseudo Isodome

,leveau (PH), Op-cit

٤. Opus Mixtum

يجمع هذا النظام اكثر من تقنية وأكثر من مادة بناء بالجدار الواحد يعتمد على مساحات من الحصى تشكل ألواح تحيط بها اجزاء مبنية من الاجر ألمشوي استعملت هذه التقنية في بناء أحد معالم شرشال. (صورة رقم ١٣).

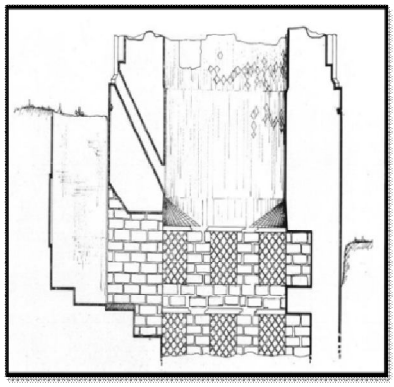

الصورة رقم ١٤ : تقنية Opus

٥. Opus Testaceu:

استعملت هذه التقنية في بناء ضريح أزقة أورومي بشرشال، وتتمثل في البناء بالأجر المشوي، ويتم ربطه بملاط طيني أو جيري[٥].(أنظر الصورة رقم ١٠).

٦. Opus caementicum :

استعملت هذه التقنية في بناء قاعدة الضريح الدائري الذي يوجد بتديس (قسنطينة)، وتتمثل في حجارة الرضم أو الدبش، ابعاد هذا الاخير تكون متقاربة وواجهته مشذبة بشكل تقريبي، وتنحت الفواصل وواجهات الاستقبال لضمان تشابكهم.(يحاول البناء وضع الدبش على شكل مدامك شبه منتظمة)٦، ويربط بينه بملاط طيني أو جيري. وتتميز زوايا المعالم المبنية بهذه الطريقة بوجود أحجار شبه منحوتة وصلبة وتضاف أحيانا بعض العارضات للزيادة في تقوية الجدار الذي يتراوح سمكه ما بين ٥٠سم وإلى ٧٠سم.(صورة رقم ١٤).

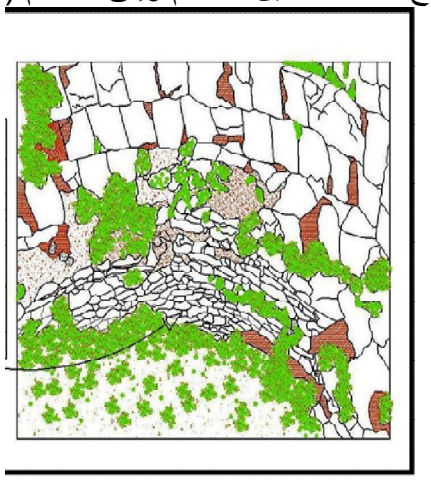

الصورة رقم ١٥ تقنية Opus

[5] - Adam (JP), la construction romaine, matériaux et techniques. Paris 1989, P :154.
[6] -Marin (R), Manuel d'architecture Grecque, T.I , Paris 1954. P360.

٧. Opus Incertum : مرضوم متغير:

المرضوم المتغير هو عبارة عن تقنية بناء بالدبش أو الحجارة الصغير بشكل يستحيل تمييز صفوف المدامك بالحائط. ويرجع ذلك لإختلاف أحجام وأبعاد الأحجار، ويربط بين هذه الأحجار بملاط طيني أو جيري، ويمكن تعزيز الحائط ببعض الشظايا الحجرية للزيادة في صلابته. استعملت هذه التقنية في بناء ضريح راس الأحمر بشرشال. (صورة رقم ١٥).

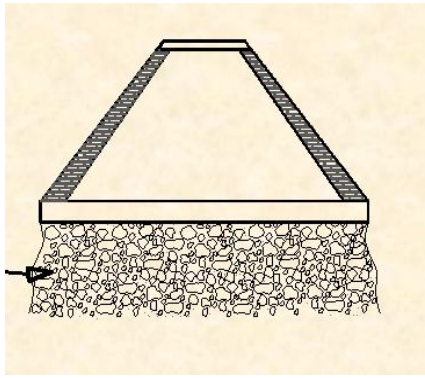

الصورة رقم ١٦ تقنية Incertum

٨. Opus Sectile:

تتمثل هذه التقنية في قطع حجرية ذات أشكال هندسية مختلفة، رباعية أو سداسية الأضلاع، تزين ارضية وجدران بعض المعالم. وكانت هذه التقنية منتشرة بكثرة في إيطاليا خاصة في الفترة الأغوستية وفي القرن الأول الميلادي٧. إستعملت هذه التقنية بأرضية أحد معالم شرشال. (صورة رقم ١٦).

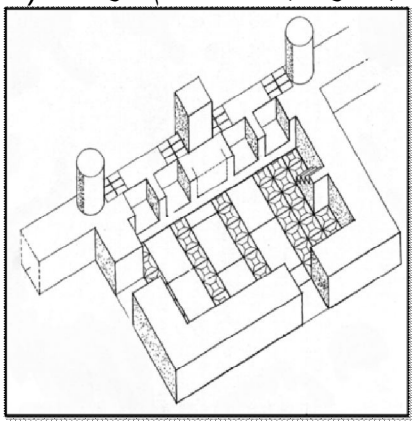

الصورة رقم ١٦ تقنية Opus Sectile

[7] - leveau (PH), Op-cit, P : 104

أساليب تلبيس وتزيين واجهات الجدران:

زينت الواجهات الخارجية للمعالم الجنائزية بمختلف أساليب التلبيس مثل :

١. **ألطلاء** تدعم معظم تقنيات بناء جدران متفاوتة الخشونة خاصة في تقنية Opus Caementicum، ولذلك يتم تبليطها بإخفاء عيوبها. وبالإضافة للدور التزييني الذي كان يلعبه الطلاء، يقوم بتقوية الجدار وحمايته من الرطوبة أيضا. وكانت هذه المادة تنشأ من خليط من الجير ومسحوق الكلس[٨]. وكانت تسمى هذه الطريقة لتلبيس وتزيين واجهات المعالم Opus Tectorium، واستعملت في العديد من المعالم الجنائزية. وجدت آثار لها بأحد معالم تيبازا، وفي معالم سكيكدة ...

٢. **الرخام:** استعملت هذه المادة لتلبيس بعض الاضرحة مثل ضريح إكوزيوم وضريح تيمقاد. ولإثبات اللوحات الرخامية على جدار المعلم، يتم إلصاقها بملاط جيري. ومن الضروري أن سمك اللوحات لا يتجاوز ٣ أو ٤ سم، كي يكون التثبيت على الجدار أسهل وأجود.

كشفت دراسة مواد وتقنيات البناء بالمقاطعات الرومانية في الجزائر مجموعة من الخصوصيات التقنية والفنية في مجال العمارة الجنائزية تقاسمتها جميع المواقع الأثرية مما يوحي بوجود خصوصيات معمارية وذوق فني موحد بها.

استعملت مختلف المواد الطبيعية مثل الحجارة نجدها إما منحوتة بطريقة جيدة أو شبه منحوتة أو على شكل رضم.

كما استعملت معظم تقنيات البناء المعروفة في العهد ألروماني حيث تنوعت اشكال وواجهات المعالم وتغيرت من مبنى إلى اخر. فالتنوع برز خاصة بموريطانيا القيصرية بحيث استعملت بمنطقة شرشال أكثر من أربع تقنيات مختلفة.

أما التقنية الاكثر إنتشارا على مستوى المقاطعات الثلاث تبقى تقنية الحجارة الكبيرة المنحوتة والمنتظمة Opus Quadratum . وتعتبر التقنية الوحيدة التي تنتج عنها جدران ملساء لا تحتاج لملاط ولا لطلاء، إنها ذات جمال وأناقة لا نجدها في التقنيات الأخرى.

[8] - Adam (JP), Op-cit, P :232.

Résumé :

Les monuments funéraires peuvent être considérés comme sources archéologiques importantes. Nous les retrouvons en très grand nombre, à travers toutes les provinces romaines.

Notre communication se limite à l'étude archéologique de ces monuments suivie de dessins de coupes, et de quelques restitutions pour mieux comprendre l'architecture et la structure interne de ces mausolées funéraires d'époque romaine en Algérie.

المراجع :

1. Adam (JP), la construction romaine, matériaux et techniques. Paris 1989.
2. Gsell (St), les monuments antiques de l'Algérie. T II, Paris 1901
3. leveau (PH), Caesarea de Maurétanie, Une ville romaine et ses campagnes, Coll. EFR.70. 1984.
4. Marin (R), Manuel d'architecture Grecque, T.I , Paris 1954.
5. Masqueray, « Monuments de Tebessa » dans revue Africaine. XXII, 1878.